اكتشاف اميركا واحتلالها

اذا ذُكرت الحوادث الخطيرة التي لها الشأن الاكبر في احوال البشر وجب ان يُذكر معها اكتشاف اميركا واحتلالها لا من حين وصل اليها الناس اولاً وسكنوها بل من حين وصل اليها خريستوفورس كولمبوس وذهب اليها اهالي أُوربا بعده واحتلوها وعمَّروها . لان وصول الاولين اليها لم يكن لهُ شأن يذكر في احوال البشر واما استيطان الاوربيين لها فقد نتج عنهُ قيام جمهورية عظيمة فيها تضاهي اعظم الممالك ثروة واشدها منعة وانتظام ممالك وجمهوريات أُخرى سائرة كلها او اكثرها في سبيل النجاح

وقد طلب الينا بعض الفضلاء ان نلخّص لهم قصة ذلك الاكتشاف والاحتلال فجاء طلبهم منطبقاً على ما كنَّا نفكر فيهِ منذ مدة وهو وصف اشهر حوادث التاريخ الحديثة كاكتشاف اميركا وثورة فرنسا واحتلال الهند ونحو ذلك مما جعل عمران القرنين الثامن عشر والتاسع ارقى من كل عمران سبقهُ صناعةً وتجارة وبوَّأ الاوربيين منصَّة القضاء والسيادة في المسكونة فدان لهم اقيال الهند وسنُّوا السنن لملوك الصين وجابوا فيافي افريقية وجاهلها وجعلوا ينشئون فيها الممالك

لما وصل خريستوفورس كولمبوس الى اميركا وجدها آهلةً بالسكان شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً بعضهم قبائل رحَّل يعيشون بالصيد والقنص وبعضهم اهل حضارة ونعيم لهم المدن الفخيمة والقصور المشيدة والهياكل الكبيرة والقرى والدساكر وبين هذين الطرفين اقوام متباينون في درجة حضارتهم

ولا يُعلم من مصَّر تلك القارَّة اولاً ولا من اين اتاها سكانها الاولون . ولاهل البحث في ذلك مذاهب شتى سنشير الى المذهب الأوجه منها

وكولمبوس كاشف اميركا الاوربيين رجل ايطالي ولد بجنوى سنة ١٤٣٥ او ١٤٤٦ وابوهُ مشَّاط صوف فعلَّمهُ صناعتهُ ثم بعث بهِ الى مدرسة باقيا الجامعة فاقام فيها مدة قصيرة حتى اذا صار عمرهُ اربع عشرة سنة ذهب في احدى السفن ملاَّحاً وجندياً حسبما كان الملاَّحون في ذلك العصر حتى اذا اشتدَّ ساعدهُ جُعل رئيساً على سفينة وأُرسل الى تونس ليوقع بسفينة من سفنها . وفي سنة ١٤٧٠ كُسرت سفينتهُ عند رأس سنت فنسنت في الطرف الجنوبي الغربي من بلاد البرتغال فركب لوحاً من الخشب وبلغ البر عليهِ . واقام في مدينة لسبون مدة واقترن فيها بابنة رجل ايطالي الاصل كان عاملاً من قبل ملك البرتغال على

بورتو سانتو جزيرة صغيرة قرب جزائر مديرا غربي المغرب الاقصى . وذهب الى هذه الجزيرة واقام فيها مدةً وكان يكتسب معيشتهُ برسم الخرائط للتجّارة فاضطرَّ ان يبحث وينقب في خرائط حميهِ ويباحث شيوخ النوتية عما لقوهُ من المشاق في اسفارهم فاستنتج من كل ما رآهُ وسمعهُ انهُ لم يزل جانب كبير من الارض مجهولاً ويمكن الوصول الى طرف آسيا الشرقي بالسير اليهِ غرباً واطلع طيبيًّا فلورنسيًّا على هذا الرأي فاقنعهُ بصحتهِ

وكان كثيرون قد ارتأوا مثل رأيهِ قبلهُ وابعد واحد من اهالي البرتغال الفًا ومئتي ميل عن رأس سنت فنسنت غرباً محمولاً بتيَّار عنيف فوجد قطعة من الخشب طافية على وجه الماء وفيها آثار تدل على انَّ يد الانسان عملت بها . والتقط صهر كولمبوس انابيب كبيرة من القصب امام بورتو سانتو يبلغ الانبوب منها نحو اقتين من الخمر وهي مما لا ينبت الاَّ في بلاد الهند فهذه الامور وامثالها قوت اقتناعهُ بانهُ اذا واصل السير غرباً بلغ بلاد الهند

وسار سنة ١٤٧٧ حتى بلغ شمالي البلاد الانكليزية ولا يبعد ان يكون قد سمع وهو هناك عن وصول بعض اهالي نروج الى بلاد مجهولة واستيطانهم لها قبل ايامهِ بخمس مئة سنة وانقراض نسلهم منها . فعزم على الرحلة الى هذه البلاد وجعل يفتش عمَّن يمدهُ بالمال والرجال وطلب ذلك اولاً من مجلس جنوى مسقط رأسهِ فرفض المجلس طلبهُ . ولما رأى ان ابناء وطنهِ لم يحفلوا بهِ لجأ الى يوحنا الثاني ملك البرتغال فاحالهُ على لجنة من العلماء تنظر في المسائل الجغرافية التي من هذا القبيل . فكان قرارها على غير مرادهِ . وكان الملك ميَّالاً الى البحث عن البلدان الجديدة فاشار عليهِ احد الاساقفة ان يرسل سفينة تضرب في عرض البحر الغربي خفية عن كولمبوس ففعل وبعث بالسفينة فسارت الى ان يئس بحارتها من طول الشقَّة فعادوا بها ادراجهم . وعرف كولمبوس ذلك فاغتاظ من هذه الخائلة وبعث بكتاب الى الملك هنري السابع ملك الانكليز يعرض عليهِ رأيهُ ويطلب منهُ المساعدة على تحقيقهِ . ولا بدَّ من ان يكون قد وعدهُ بان يكتشف الارض الجديدة باسمهِ كما وعد غيرهُ

ثم هرب من بلاد البرتغال الى اسبانيا وقصد دوق مدينة صيدونيا جنوبي اسبانيا وطلب مساعدتهُ فلم يحفل بهِ بل حسب رأيهُ من قبيل الاوهام . فتركهُ وقصد دوق مدينة مالي فانزلهُ على الرحب والسعة واكرم مثواهُ وعزم ان يجهزهُ بثلاث سفن ولكنهُ عاد فرأى ان العمل كبير فوق طاقتهِ فاهملهُ . وعزم كولمبوس ان يستعين بملك فرنسا فصرفهُ هذا الدوق عن عزمهِ وكتب الى الملكة ايزابلا[1] ملكة قشتالة (Castilla) يتوسَّل اليها ان لا تدع عملاً مثل

(١) انتقل اليها ملك قشتالة بعد وفاة اخيها الملك هنري الرابع واقترن بها فرديناند ملك اراغون وصقلية

هذا يذهب الى الغرباء فامرت بمجيء كولمبوس اليها الى قرطبة Cordova

وكانت الحرب ناشبة بين العرب نزلاء اسبانيا وبين اهلها الاصليين فلم تجد الملكة ايزابلا مجالاً للنظر في طلب كولمبوس لكنها اكرمت مثواهُ وامرت واحداً من خواصها ان ينظر في طلبهِ . ولم يكن الاَّ القليل حتى اقنع كثيرين بصدق دعواهُ وسار مع حاشية الملكة الى سلمنكا والتي هناك الكردينال مندوزا صاحب الصول والطول في اسبانيا . وظن هذا الكردينال اولاً ان في رأي كولمبوس رائحة الكفر لكنهُ اقتنع بصحتهِ حالاً واقنع الملك فرديننند زوج الملكة ايزابلا حتى قابل كولمبوس وسمع ما يقولهُ واحالهُ على مجلس من علماء الفلك والجغرافية سنة ١٤٨٧ فبسط كولمبوس ادلتهُ لاعضاء هذا المجلس فناقضوهُ وقاوموهُ واستدلوا على فساد آرائهِ بكثير من آيات التوراة واقوال آباء الكنيسة وبعد جدال طويل دام نحو ثلاث سنوات اقرَّ المجلس على ان رأيهُ باطل لا يعمل بهِ

وكان كولمبوس في كل هذه المدة يسير في حاشية الملك والملكة وهما يحاربان العرب وحضر حصار مالقة Malaga فلما حكم المجلس برفض طلبهِ سار قاصداً فرنسا ودخل في طريقهِ ديراً في الاندلس وطلب ماء وطعاماً لابنهِ فسألهُ رئيس الدير الى اين يقصد فاخبرهُ بقصدهِ فدعاهُ الى داخل الدير وكان فيهِ طبيب ماهر في علم الجغرافية فاخذ يباحثهُ في امر الوصول الى الهند فاقنعهُ كولمبوس بصحة رأيهِ وكان رئيس الدير قبل ذلك معرّفاً للملكة ايزابلا فكتب اليها عن كولمبوس فاتاهُ الجواب منها ان يأتي اليها بهِ وارسلت اليهِ نفقات السفر . ووصل الى غرناطة وقتما استلمها الاسبانيون من العرب

وطُلب من كولمبوس حينئذٍ ان يبين الشروط التي يشترطها لكشف هذه البلاد الجديدة فطلب ان يعطى لقب امير البحر (اميرال) ويجعل والياً على كل البلدان التي يكتشفها وعشر ما يرد منها سواء كان من الغنائم او من التجارة فرُفض طلبهُ . وفي شهر يناير من سنة ١٤٩٢ اقلع من اسبانيا قاصداً فرنسا ولكن تشفع بعضهم في امرهِ لدى الملكة واقنعها بمساعدتهِ فارسلت اليهِ رسولاً ادركهُ على غلوتين من غرناطة وردَّهُ اليها وفي السابع عشر من ابريل سنة ١٤٩٢ أُمضي الاتفاق بينهُ وبين الملكة وزوجها ولم يكن اعداد السفن والتجارة بالامر السهل لانهُ لم يكد يجد من يخاطر بنفسهِ مثلهُ في مجاهل البحار . وبعد عناء شديد أُعدت لهُ ثلاث سفن وهي سنتا ماريا وفيها خمسون بحاراً وكانت ادارتها في يدهِ والبنتا وفيها ثلاثون بحاراً وقيادتها في يد مارتن بنزون والنينا وفيها ٢٤ بحاراً وقيادتها في يد اخيهِ فيسنت بنزون وجملة النفوس ١٢٠ . واقلعت هذه السفن يوم الجمعة في الثالث من اغسطس سنة ١٤٩٢ ووجهتها

جزائر كناري وبعد ثلاثة ايام اضاعت البنتا دفتها فاضطرّ كولمبوس ان يرسو بسفنهِ في مرفإ تناريف مدينة كناري ليصنع لها دفةً غيرها وعاود السير في السادس من سبتمبر وفي الثالث عشر منهُ شاهد رجالهُ انحراف الابرة المغنطيسية اول مرةً عن الشمال والجنوب فارتاعوا من ذلك وزاد ارتياعهم بعد يومين اذ رأوا نيزكاً كبيراً وقع من السماء على مقربة منهم . وبلغوا في اليوم التالي مكاناً رهواً ولقوا نسيماً عليلاً تطيب بهِ النفوس فاطمأنوا ثم زاد انحراف الابرة المغنطيسية فزاد اضطرابهم الاّ ان كولمبوس فسّر لهم ذلك بما سكّن روعهم . وشاهدوا حينئذٍ كثيراً من طيور البحر فايقنوا انهم مصيبون براً عن قريب ولما لم يضلوا الى البر تذمروا وتمرّدوا وكانوا يشاهدون احياناً ما يظنونهُ براً قريباً فتطيب نفوسهم حتى اذا بلغوهُ ورأوهُ سراب بقيعة عادوا الى التذمُّر والتمرُّد الى ان كان الحادي عشر من اكتوبر فالتقطت بحارة البنتا قناةً وقطعةً من الخشب وعصاً ولوحاً وشاهدت بحارة النينا وتداً عليهِ نبات مزهر . وفي المساء شاهد كولمبوس نوراً في الافق وفي الساعة الثانية صباحاً رأى البرّ بحّارٌ من بحّارة النينا وكان هذا البر اول جزيرة من جزائر اميركا وقد ظُنَّ اولاً انها الجزيرة المسماة الآن سان سلفادور ثم اتّضح انها الجزيرة المسماة الآن سامنا . ونزل فيها كولمبوس ذلك الصباح وهو لابس حلّة فاخرة ومعهُ العلَم الاسباني ونزل معهُ الربّانان الآخران وفريق كبير من البحارة وركعوا على ركبهم وشكروا الله والدموع ملءُ عيونهم وتقدّم اليهِ البحّارة الذين تمرّدوا عليهِ قبلاً واسترحموهُ وطلبوا عفوهُ

والجزائر هناك كثيرة قريبة بعضها من بعض فاكتشف كولمبوس كثيراً منها واشهرها واكبرها جزيرة كوبا وجزيرة هايتي وسمّى هايتي هسبانيولا وارتطمت سفينتهُ عندها لاهمال بحارتها لها فاضطر ان يخرج كل الامتعة منها ويتركها هناك وانشأ مستعمرةً في تلك الجزيرة وترك فيها ٤٣ نفساً من بحارتهِ واقلع في النينا في السادس عشر من شهر يناير سنة ١٤٩٣ قاصداً اوربا وكانت البنتا قد افترقت عنهُ فتبعتهُ بعد اربعة ايام وبعد عناء شديد بلغ مرفأ لسبون في الرابع من شهر مارس فاستقبلهُ ملك البرتغال بالاكرام والترحاب

وكان بلاط الملكة ايزابلا في برشلونة فمضى كولمبوس اليها فاستقبلتهُ هي وزوجها ورجال بلاطهما وقصّ عليهم اخبار سفرهِ واراهم بعض ما اتى بهِ من الذهب والقطن والاسلحة والنباتات الغريبة والطيور والوحوش وتسعة من هنود اميركا جاء بهم معهُ . فاقرّ الملك والملكة على ما منحاهُ قبلاً من الالقاب والامتيازات ونودي قدامهُ كعظيم من عظماء اسبانيا وصُنع لهُ ترس عليهِ شعار قشتالة وليونة اي القصر والاسد

وفي الخامس والعشرين من شهر سبتمبر اقلع بثلاث سفن كبيرة واربع عشرة سفينة

صغيرة و ١٥٠٠ رجل وكثير من الادوات اللازمة للاستعمار فبلغ جزائر الهند الغربية التي بلغها اولاً واكتشف جزائر كثيرة لم يكتشفها قبلاً وبلغ جزيرة هايتي فوجد المستعمرة التي انشأها فيها قد لعبت بها ايدي سبا فعزم على انشاء مستعمرة غيرها

الى الآن كان كولمبوس يكتشف الجزائر التي لم ترها عين الاوربيين قبلهُ فنجح في ذلك نجاحاً بيناً ولكنهُ حالما شرع في استعمار تلك الجزائر واستخراج الذهب منها وسلب الغنائم من اهلها توالت النوائب عليهِ لان هواء البلاد لم يوافق الاسبانيين واهاليها الذين رحّبوا بهم اولاً فلبوا لهم ظهر المجن الآن وقابلوهم بالعدوان . ومرض هو حتى كاد يقضي نحبهُ ولما شفي رأى ان لا بدَّ لهُ من اخذ الهنود بالقوة فاسر منهم خلقاً كثيراً وارسلهم الى اسبانيا فبيعوا فيها عبيداً وضرب الجزية الفاحشة على الذين بقوا في البلاد منهم

وقام لهُ خصوم سيفي بلاط اسبانيا حسداً فوشوا بهِ واوغروا الصدور عليهِ فبعث الملك والملكة واحداً يبحث عن اعمالهِ فاوجس كولمبوس شرًّا وعاد الى اسبانيا في ١١ مارس سنة ١٤٩٦ فوصل الى قادس في ١١ يونيو واقنع الملك والملكة باستقامتهِ ونجاح عملهِ وطلب منهما ثماني سفن للاستعمار وست سفن لمواصلة الاكتشاف . ولم تكن خزينة اسبانيا في حالة راضية لكن الملكة كانت شديدة الرغبة في اجابة طلبهِ وجهّزت لهُ ست سفن فاقلع بها في ٣٠ مايو سنة ١٤٩٨ وبعد عناء شديد رأى احد البحارة ارضاً لم يروها قبلاً وثلاث انداد اي تلال فيها فسموها ترينداد اي الانداد الثلاث وهو اسمها الى اليوم . وفي غرة اغسطس سنة ١٤٩٨ رأى طرف البر من قارة اميركا الجنوبية فظنهُ جزيرة وظلَّ يسير غرباً وهو يرى الرؤوس الثائثة من البر فيظنها جزائر الى ان رأى الماء الغزير الذي ينصبُّ من نهر اورينوكو فحكم ان البلاد قارة كبيرة وانها هي ضالتهُ المنشودة

ثم افتقد المستعمرات التي انشأها في طريقهِ فوجدها في حالة يرثى لها لان اهاليها ثاروا بالسكان او ثار السكان بهم ونشبت الحروب بينهم وسفكت الدماء واسر رجالهُ كثيرين من السكان وبعثوا خمس سفن الى اسبانيا مشحونة بالاسرى عبيداً . فاغتاظت الملكة ازابلا من ذلك وقالت من اباح لهُ ان يأسر هؤلاء المساكين وامرت ان ينادى في اشبيلية (Seville) وغرناطة وغيرها من المدن الكبيرة بعتق كل العبيد الذين اتي بهم من جزائر الهند الغربية اخيراً . فاغتاظ الذين اتوا بهم من هذه الخسارة ولم يجدوا سبيلاً لتنفيس كربهم الاَّ بالتظلُّم من كولمبوس واخويهِ واجتمعوا في ساحة الحمراء وعلا صياحهم فاصغت الملكة اليهم وعينت رجلاً اسمهُ بوبادلا حاكماً على هايتي وامرتهُ ان ينزع الولاية من كولمبوس ويبحث عن حقيقة

الشكاوى ويرفع ظلامة المتظلمين

وكان كولمبوس قد احمد ثورة بالثائرين في هايتي ونصّر اهاليها واستخرج كثيراً من الذهب حتى بلغ نصيب الدولة الاسبانية منهُ ستين مليوناً من الريالات ولكن وصل بوبادلا الوالي الجديد حينئذٍ واستولى على بيت كولمبوس وقبض عليهِ وعلى اخويهِ ورفعت الشكاوى عليهم بانهم مرتشون ظالمون عتاة حتى رأى كولمبوس انهُ غير ناجٍ من القتل لكن بوبادلا لم يقتلهُ بل كبّلهُ بالقيود هو واخويهِ وبعث بهم الى اسبانيا

وكان ربّان السفينة التي ارسلوا فيها على جانب من الشهامة فاراد ان يفك قيود كولمبوس فلم يقبل بذلك بل قال لهُ يجب ان تبقى هذه القيود كما هي الى ان يفكها الملك والملكة ثم احتفظ بها تذكاراً للجزاء الذي نالهُ . وفعل كما قال وعلّق هذه القيود بعد ذلك في غرفتهِ لتدفن معهُ بعد موتهِ

ووصلت السفينة بكولمبوس واخويهِ وهم في القيود وكتب كولمبوس الى السيدة التي كانت تربي ابنة الملك كتاباً يلين الجماد بما فيهِ من التظلّم والتذلّل واطّلعت عليهِ الملكة فرقّت لهُ ورثت لحالهِ ومال اليهِ كل اهل البلاد ففكّت قيودهُ وقوبل بالاكرام والاجلال حتى يقال ان الملكة بكت لما سمعتهُ يقص قصتهُ . وعزل بوبادلا من الولاية وعين والٍ اخر بدلاً منهُ وانهالت الهبات الملكية على كولمبوس ولكن لم يردّ الى ولاية البلاد التي اكتشفها

وكانت نفس كولمبوس لا ترضى بالسكينة والراحة فطلب ان يجهز بسفن اخرى ليذهب ويكتشف طريقاً يصل الى المشرق الاقصى الى املاك البرتغاليين في اسيا فأعطي اربع سفن و١٥٠ بحاراً وأُمر ان لا يدخل جزيرة هايتي فاقلع من قادس في ٩ مايو سنة ١٥٠٢ واكتشف جزيرة مرتنيك في ١٣ يونيو وثارت عليهِ العواصف واضطرتهُ ان يلجأ الى هايتي ولكن والي هايتي منعهُ من النزول فيها. وبعد مشاق يطول وصفها وصل الى البرزخ الموصل بين اميركا الشمالية واميركا الجنوبية فوجد هناك ذهباً كثيراً وانشأ مستعمرة ترك فيها ثمانين من رجالهِ ولكن ثارت الفتن بينهم وبين السكان الاصليين حالاً فاضطرّ ان يترك لهم سفينة من سفنهِ ليعودوا بها الى وطنهم وعاد هو بطريق كوبا واخذ الزاد من اهاليها وسار الى جمايكا وجنحت سفنهُ هناك في مكان يسمى كهف خريستوفورس الى الآن وهشّ لهُ السكان وانزلوهُ على الرحب والسعة لكن رجالهُ اساءوا اليهم فابتعدوا عنهُ وقطعوا عنهُ الزاد الى ان انبأهم بخسوف قريب فخافوهُ وعادوا الى اكرامهِ . وكان قد ارسل يطلب النجدة من الجزائر الاخرى التي نزلها الاسبانيون فاتتهُ سفينتان عاد بهما الى اسبانيا فبلغها في ٧ سبتمبر سنة ١٥٠٤ بعد عناءٍ شديد ومخاطر كثيرة

وتوفي في ٢٠ مايو سنة ١٥٠٦ ودفن في اسبانيا اولاً ثم نقل الى هايتي ودفن في كنيستها . ولما انتقل قسم اسبانيا من تلك الجزيرة الى فرنسا نقل رفاتهُ الى هافنا بكوبا . ويقال ان رفاتهُ لا يزال في هايتي والذي نُقِل انما هو رفات ابنهِ ففي سنة ١٨٧٧ وجد قبر في كنيسة هايتي عليهِ حروف تدل على انهُ قبر " مكتشف اميركا الاميرال الاول " وعلى التابوت الذي فيهِ ثلاثة حروف C. C. A. اي خريستوفورس كولمبوس الاميرال

(خرستوفورس كولمبوس)

وكان كولمبوس طويل القامة كبير العينين جميل المنظر شاب شعرهُ وهو في الثلاثين من عمره . وكان غير متأنق في مأكلهِ ومشربهِ ولباسهِ شديد التديُّن يكثر من الصوم والصلاة حتى يظن من يراهُ انهُ من الرهبان . عالي الهمَّة يقتحم المخاطر لنيل مقاصدهِ غير مبالٍ بخداع المخادعين وختل المخاتلين

وسنتم الكلام على كشف اميركا ونفصل تاريخ شعوبها الذين كانوا فيها وكيفية فتح الاسبانيين لها وتقويضهم دعائم عمران ارقى من عمرانهم واعظم